٩٩/٩/٤/٢٨

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢٤٠
التاريخ ١٥/٢/٢٠١٤

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

الفكر العربي

العدد الثاني والثلاثون نيسان (ابريل) - حزيران (يونيو) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل
الشيخ عبدالله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبدالسلام المسدي — رئيس التحرير
د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة — رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان
ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٤
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الثمن : ٢٠ ل.ل. أو ما يعادلها

الإسلامُ والغربُ (★)

نورمان دانيـيل
مراجَعَة محـمَّد عَطويْ

«ناقل الكفر ليس بكافر»، هذا ما ورد بالعربية في الصفحة الأولى من كتـاب «الإسلام والغـرب». ويقـول المؤلف في المقدمة: «آمل أن لا يُصدم أو يُروّع المسلمون ببعض ما جاء في هذا الكتاب، أو يعتبرون أنني على خطأ لأنني أعدْتُ إلى الذكرى بعض الطعـن والتشهير بـدينهـم ونبيهم. وقصدي الرئيسي علميٌّ؛ هو إقْـرارُ جُمْلَـةٍ مـن الحقائق. أمّا هدفي الثانوي فهو إظهار ما ينطوي عليه تجاهُلُ موقف أولئك الناس إزاء الذين يُعتبرون أعداؤهم. ويتضمّن الهدفـان الطلـبَ مـن الأوروبيين إدراك كم مـن الأفكار الخاطئة تقبّلت حضارتُهم في الماضي. ومن جهتهم، يمكن أن يشكّ المسلمون في أنهم قاموا بمثل تلك الأخطاء، مع العلم أن هذا ليس موضوعي. ولا يهتم الفصل الأخير من الكتاب بإظهار كل تاريخ الموقف الأوروبي إزاء الإسلام من عام ١٣٥٠ حتى يومنا هذا، بل يهتم بإظهار جوانب معينة من التطور الذي حدث ما قبل العصور الوسطى بحيث يكون من الممكن مساعدةُ الأوروبيين والمسلمين، على حَدٍّ سواء، على تحديـد التحـامـل الذي يـؤثّـرُ على المواقـف الأوروبية».

وتذكر مقدّمةُ الكتاب أنّ الإسلام والمسيحيـة يهتمّـان ظاهرياً بالمواضيع نفسها، بينما يختلفان جوهرياً بالوسائل التي استخدمها الله لإظهار نفسه. فهما يختلفان إزاء طبيعة الوحي الذي يؤمن المسلمون أنّ محمّداً قام به فقط. وتدور نقاطُ الخلاف بين المسلمين والمسيحيين حول طبيعة النبوة، وتجسّد المسيح والثالوث الأقدس. وأخيراً، هناك أسئلةٌ حول نبوة محمد. وماهية الشريعة التي أُوحيتْ إليه؟ هل كانت قصةً خياليةً أُلّفت لتُناسب الحاجات الملحة ورغبات محمد مع رغبات رفاقه بصورة عامة؟ مع العلم أنّ العديد من المسيحيين، وغير المسيحيين، يعتقدون ذلك.

أما فصل الكتاب الأول فهو بعنوان «الوحي: المفهوم المسيحي للعقيدة الإسلامية» وفيه أنَّ الإختلافات الرئيسية التي تُفرّق بين المسيحية والاسلام هي حول الوحي. وفي رأي المسيحيين؛ فإن الاستعداد النبوي الموروث لليهود أدّى إلى حَدَثٍ فريدٍ هو تجسّد المسيح. وفي نظر المسلمين، هناك وحي واحد، وهو وحي دين الإسلام، أو الرضوخ لله، وقد قام بذلك أنبياء متعاقبون. ونبـوة محمد كـانـت الأخيرة. وقد شُوِّهَ الإسلام عندما قدّمه المسيحيون. وعلى الرغم من ذلك، فإن العديد من الكتّاب قد فهموا معتقدات الاسلام فهماً جيداً. ثم يتحدث الكتاب عن محمد كنبي، وعن

(★) Norman Daniel, Islam and the West, The Making of an Image. Edinburgh 1960, 1962, 1966, 1980. 448P.

خالد أبناؤه، وقد قال لي بعض المشايخ من أهل الشام إن ذلك المصحف الآن في أرض طوس». وعندما راجعت **معجم البلدان** لياقوت الرومي الحموي، وجدته يذكر طوس التي في بلاد العجم، وبعدها يذكر طوس التي هي: من قرى بخارى التي ينتسب إليها عدد من أهل العلم منهم: أبو جعفر رضوان بن عمران الطوسي من أهل بخارى، روى عن أسباط بن اليسع، وأبي عبدالله بن أبي حفص، وروى عنه خلف بن محمد بن اسماعيل الخيّام.

ولا ندري ما إذا كان ابن قتيبة يذكر وجود مصحف عثمان **بطوس** بخارى أو **بطوس** العجم، وأغلب الظن أن المقصود هنا هي طوس بخارى، وهو ما أمكننا استنتاجه من الوقائع التالية:

جاء في كتاب رحلة **ابن بطوطة** المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار» قول صاحب الرحلة تحت عنوان «مدينة البصرة»: وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وإيناس للغريب وقيام بحقه، فلا يستوحش فيما بينهم غريب، وهم يصلّون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، الذي ذكرته، ثم يسد فلا يأتونه إلاّ في الجمعة. وهذا المسجد من أحسن المساجد، وصحنه متناهي الانفساح مفروش في الحصباء الحمراء التي يؤتى بها من وادي السباع، وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لمّا قُتل، وأثَرُ تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى: فسيكفيكهُمُ الله وهو السميع العليم ـ نقول، وكانت وفاة ابن بطوطة في سنة (٧٧٧ هـ/١٣٧٥ م).

ويقول محمد **أمين الخانجي** في كتابه «منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان» ـ وهو ذيل لمعجم البلدان الذي ألفه ياقوت الحموي الرومي ـ في معرض كلامه عن هذا المصحف، الذي رآه ابن بطوطة في مسجد علي بن أبي طالب بالبصرة:

«... والمصحف المذكور سُلب بعد ذلك من البصرة، ونُقل إلى سمرقند ومنها إلى الروسيا وهو الآن في مكتبة بطرسبرج الملكية». ومحمد أمين الخانجي كان حياً في الثلاثينات من القرن الحالي الميلادي؛ وإذا كان ما يقوله هذا المؤلف مستنداً إلى مصادر وثيقة، فهذا يعني أن القول بوصول المصحف إلى الروسيا ليس بمستبعد.

وجاء في كلام المؤرخين، ومنهم **النويري** في كتابه «نهاية الأدب»، إن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، من سلاطين المماليك المتوفى سنة (٦٧٦ هـ/١٢٧٦ م)، كان على علاقة طيبة مع الملك بركة خان المتوفى سنة (٦٦٥ هـ/١٢٦٦ م) الذي كان أبوه جوجي بن جنكيزخان. وقال ابن تغري بردي في كتابه: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». هو ـ أي بركة خان ـ كانت مملكته عظيمة متسعة جداً، وهي بعيدة عن بلادنا. وله عساكر وافرة العدد. وكان بركة هذا، يميل إلى المسلمين ميلاً زائداً، ويعظم أهل

العلم ويقصد الصلحاء ويتبرك بهم، ووقع بينه وبين ابن عمه هولاكو وقاتله بسبب قتله للخليفة المستعصم بالله وغيره من المسلمين ـ وكان بينه وبين الملك الظاهر مودة ويعظم رسله. وكان قد أسلم هو وكثير من جنده، وبنى المساجد وأقيمت الجمعة في بلاده، وكان جواداً عادلا ...». ومِمَّا يُذكر أن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري رسم بتجهيز الهدايا إلى الملك بركة خان، بعد تحرير رسالة قرئت عليه، وكانت الهدايا عبارة عن ختمة (أي مصحف كامل) ذُكر أنها من خط عثمان بن عفان رضي الله عنه. قال النويري: «ذُكر أنها من المصاحف العثمانية بغلاف أطلس أحمر، مزركش ضمن درج آدم مبطّن بعتّابي (نوع من الحرير)، وكرسي لها من العاج والآبنوس، مخرَّم بسقط فضة ...» إلى آخر ما قالوا ...

قال الشيخ **محمد مراد بن عبدالله الرمزي البلغاري** ثم المكي (المتوفَّى سنة ١٩٤٠ م، في التركستان الشرقية) في كتابه «تلفيق الأخبار في تاريخ قزان والبلغار»، الذي ذكر فيه أخبار بيبرس وبركة خان: «... والمصحف الذي اشتُهر بأنه مصحف سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وجلبوه من سمرقند إلى بطرسبورج وأودع في كتبخانة الامبراطورية، لا يبعد أن يكون هو هذا المصحف، بأن حمله تيمورلنك من «سراي» إلى «سمرقند» عند حروبه مع توقتامش خان واستيلائه على «سراي»؛ وهذا الاحتمال قريب، فلا وجه لاستبعاد البعض إياه من غير دليل يستند إليه». قال الشيخ اسماعيل **مخدوم** في كتابه «تاريخ المصحف العثماني في طشقند»: «وقد حمل هذا المصحف إلى مدينة بطرسبورج، عند استيلاء الروس على مدينة سمرقند سنة (١٢٨٥ هـ/١٨٦٨ م). وما دمنا قد ذكرنا أقوال المؤرخين القدماء حول وصول هذا المصحف إلى بلاد الروسيا، وهي كما أشرنا من قبل أقوال مرتبكة اختلطت فيها الأسطورة بالحقيقة، فإننا نختم هذا الاستعراض للرحلة التاريخية، التي قام بها هذا المصحف عبر العباد والبلاد، بالكلمة التي نشرها الدكتور **عبدالرحمن الكيالي** من أعيان مدينة حلب وعلمائها. ونحن ننقلها من مجلة المجمع العلمي العربي (المجلد ٣٨، الجزء ٤) وقد جاء فيها قول الكاتب المذكور:

«... قرأت في مجلة «بلاد السوفيات» الصادرة في (٥ نيسان/ابريل ١٩٦٣) مقالاً عنوانه: مخطوط من ١٣٠٠ سنة»... استرعى انتباهي، وهو كما يلي:

(لا يخبرنا التاريخ بمعلومات محققة، عن الظرف الذي وجد به في مدينة «سمرقند» هذا المخطوط القديم المعروف باسم «مصحف عثمان»).

تقول الروايات، إن هذا القرآن قد جمعه الخليفة عثمان بن عفان الخليفة العربي الثالث، شخصياً لأكثر من (١٣٠٠) سنة خلت، وعندما قتل عثمان كان المصحف بيده فانتشر الدم عليه؛ وحُمل القرآن إلى سمرقند بعد حملة مظفَّرة قام بها تيمورلنك، جلب منها من جملة ما جلبه هذا المصحف ووضعه في مكتبته. وتقول رواية

أنّ التظاهر بالنبوة كان لتبرير نوبات الصرع. والسبب المنطقي الآخر هو أن النبوة كانت وسيلةً للوصول إلى النفوذ والسلطان». ويعزو المؤلف إلى «جيبير» أنَّ محمداً قد حصل على مملكته بفضل قوة إرادته.

وينتقل المؤلف إلى علاقة الراهب بحيرا بمحمد فيقول: «عاش الراهب بَحيرا في دير منعزل عن العالم. وكان ذلك الدير مكان توقف طبيعي للتجار على طريق الحجاز. واعتاد أن يلتقي في ذلك الموضع المسافرون السوريون والعرب والمصريون. وتراءى لبَحيرا أنَّ واحداً من هؤلاء المسافرين سيصبُح حاكماً لأمةٍ كبيرةٍ وقويةٍ، مستنصر بكنيسة المسيح. ولذا رغب الراهب بَحيرا أن يقابلَ محمَّداً». ثم يقول «وليم» من طرابلس: «اعتبر المسلمون هذه الحادثة أول معجزة لأنَّ اللهَ عمل لصالح محمدٍ وهو لا يزالُ يافعاً. وقال المسلمون إنه عندما أراد محمد أن يدخل الدير، عبر الباب؛ فإنَّ قوةً إلهيةً وسَّعت له الباب حتى بدا كبوابةِ بلاطٍ إمبراطوريٍّ؛ أو مدخلاً إلى بيت صاحب جلالة». ويقول المؤلف: «لم يعتقد المؤرخ وليم من طرابلس أنَّ الراهب بَحيرا قد آرتدّ عن دينه، وقال إنه بقي رجلاً مقدساً، وعلّم محمداً الإيمان بإله واحد، وجعله يحب المسيح وأمه مريم. وقد سمح الرهبان لمحمد بالمكوث معهم لفترة من الزمن، ثم أخذ يتعاطى التجارة، وكان أثناء ذلك يزور الراهب بَحيرا. وعندما أصبح محمد غنياً وذا نفوذ، استدعى الراهب وأبقاه عنده كمرشد حتى قتله (الراهب) أصحابُ محمد بسبب غيرتهم وحسدهم منه». وصوّر المؤرخ «سان بيدرو» بحيرا إنساناً منزوياً عن الناس، ذا علم غزير. وقد بشّر عم محمد بقوله: «على المسلمين الاهتمام بمحمد لأنه سيصبح نبياً وسيداً لشعب كبير، وعليهم، أيضاً، حمايته من اليهود، لأنه سيأتي اليوم عندما سيقتلون محمداً لأنه سيقول أموراً تُخالف ما لديهم».

ويعالج ن. دانييل مسألة زواج النبي (ص) من خديجة في العصور الوسيطة فينسب إلى المؤرخ «فيتري» قوله: «لقد اشتهى كلٌّ منهما الآخر، وتواصلا قبل عقد القران. ولكن بعد ذلك تم عقد زواجهما علناً. وأعطت خديجة محمداً كميةً كبيرةً من المال». ثم يقول المؤلف: «كان هنالك تشويش في تصوير شخصية أبي طالب، ويعتقد المؤرخ ليل أنّ خديجة كانت أرملته».

ثم يتابع المؤلّف تصوُّرات اللاهوتيين والمؤرخين الوسيطين لأسباب عُلُوّ شأن النبي فيقول نقلاً عنهم: «حاول محمد أن يصبح ملكاً تحت قناع الدين وتحت اسم النبي المقدس. لقد حصل على المملكة بوصفه رسول الله، ونبياً. ومن المفروض أن الانتقال المفاجىء لمحمد من الفقر المدقع الى الغنى قد جعله في غير عقله الكامل. لأنه استغل النبوّة للخداع والاحتيال. وكان من الضروري تفسير عزمه على أن يكون نبياً. وهكذا يقول المؤرخ فيتري أنه عندما أصبح محمد عظيماً، بعد زواجه من خديجة؛ بدأ يمجّد نفسه؛ فخطط للحصول على السلطان بكل وسيلة». ويقول المؤلف أنّ مرجعاً آخر يقول في هذا الصدد: «عندما ارتفع محمد بدأ يتبجح كثيراً، وقرر أن يصبح سيداً على كل قبائل أمته، وكان بوده ان يلقب بالملك لو لم يكن هناك بين قومه أنبل وأقوى منه. فعوضاً عن ذلك ادّعى أنه نبي مُرسل من عند الله، ويجب أن يصدّق كلامه كل فرد». ويعتقد اللاهوتيون أن جريمة محمد بوجهها العام هي مزدوجة، فقد استعمل حيلة مزدوجة ليكسب أكبر عدد ممكن من الأتباع؛ إذ استعمل التلفيق والاضطهاد. ولا يمكن فصل تلفيق نبوته عن الاضطهاد الذي مارسه بالقوة والعنف. ويقول المؤرخ «ريكولدو»: «بفضل حيويته ونشاطه في الامور الشخصية، وبفضل مكره الكبير؛ انتقل محمدٌ من الوضاعة والحقارة والفقر المدقع الى الغنى والشهرة. وقد تمّ له ذلك خطوةً خطوةً، إذ إنه نشر الرعب بنفسه، بإزعاجه لجيرانه وخاصة أقرباءه، وذلك بنصب الكمائن لهم، والنهب والغزوات، وبقتل أكبر عدد منهم سراً أو علناً». ويقول المؤلف إنّ القُرّاء الغربيين قد أدركوا أنّ محمداً جمع حوله

«زمرة» من منتهكي الحرمات المقدسة، وقطّاع الطرق، والسالبين، والقتلة واللصوص. وبأعماله هذه دبّ الرعب في منطقته. ثم يقول المؤلف «إن عدم وجود تفاصيل موثوقة عن حياة محمد، ما عدا تلك المستقاة من الرسالة، يعني الجهل المطبق لتاريخ سيرة حياته العامة. وإن فقدان المعلومات المضبوطة لسيرة حياته الممتدة بين حياته المبكرة حتى مطالبته بالنبوة ومماته هو جدير بالملاحظة. إذ توجد معلومات قليلة جداً دقيقة بين الفترتين الزمنيتين».

وينسب المؤلف الى مرجعين، الرواية التي تفيد أن أبا طالب رفض الإيمان بالاسلام وهو على فراش الموت لئلا يعتقد القرشيون أنه فعل ذلك بداعي الخوف. ويقول المرجع «ريبروباشيو» إن محمداً قد ادعى أن مهمته هي الطلب من الناس أن يعترفوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسوله، وإذا رفض الناس الإقرار بذلك فإما أن يقتلوا أو يدفعوا الجزية. وقد علّل مؤلف المرجع المذكور الأسباب التي جعلت الناس يؤمنون بمحمد بما يلي: (١) إما أنهم خدعوا بالشيطان بسبب سذاجتهم، (٢) أو حذوا حذو أقربائهم ولو كان ذلك الى الخطأ، (٣) أو للحصول على المنافع المادية. ثم يذكر المرجع نفسه الناس الأول الذين دخلوا الإسلام في مكة وهم: خديجة، وعلي (أول الرجال)، وزيد، وأبو بكر. ويُضيف المؤرخ سان بيدرو خطأً، أسماء بعض اليهود من بني قُريظة. ويرى المؤرخ بيدرو أن النبي أخاف الناس بتهديده لهم بالنار، وكذلك الأمر شجعّهم على الإسلام بوعدهم بالجنة. ويقول المؤلف: «طغت فكرتان رئيسيتان على كل الروايات التي تحدثت عن حياة محمد. الفكرة الاولى تقر بأن محمداً كان عنيفاً، إذ إنه شن الحروب، وأمر بالقتل لغايات خاصة، وبدون وازع أخلاقي، أمر بالنهب والسلب. وأما الفكرة الثانية فهي أنه كان خاضعاً للإثم الإنساني، إذ إن حياته مليئة بالصعود والهبوط، وهي تاريخ أظهر التقلبات العادية الكثيرة. وهكذا كان محمد شريراً وآدمياً». ويقول المؤلف ليس ممكناً تجاهل ظاهرة سيرة النبي التي اعتبرت هامة في نظر كتّاب العصور الوسطى. هذه الظاهر هي أن محمداً صدم مفهومهم عن الحكم الدنيوي وما يمكن أن يفعله. كما أن إسراف الكتّاب المسلمين في وصف الروايات الجنسية زادت من حدة تلك الصدمة. ثم يتحدث المؤلف عن زواج محمد فيقول: «كانت الرواية المحببة لدى كتّاب العصور الوسطى هي قصة زواج محمد من زينب بعد طلاقها من زيد بن حارثة. إنها قصة الخطيئة مع زوجة ابن مُتبنًّى. وتمثّلُ هذه القصة استخدام الوحي لتحقيق غاية شخصية». ثم ينسب المؤلف إلى اللاهوتي «ريبرو باشيو» قوله: «قال محمد بأن الله قال له: أحلّلنا لك زوجاتك اللواتي آتيتهنّ أجورهن، وكل ما ملكت يمينك منهن، وبنات عمك وعمتك. وأحللنا لك كل امرأة مؤمنة إذا هي قَدَّمَتْ نفسها لك. وهذا مسموح للنبي فقط، وليس لغيره من المؤمنين. وستنال كل ما ترغبه، ولن يكون ذلك خطيئة». ولكن المؤلف يقر بأن القول المذكور كان خاطئاً إذا ما قارناه مع الأصل القرآني. ثم يستطرد المؤلف ويقول إن المرجع (ريبرو باشيو) فهم أشياء أخرى معيبة ومخجلة، إذ قال: «بسبب هذا الوحي، فإن نساء كثيرات قدمّن أنفسهن، وهذا مُثبت في كتاب البخاري لتفسير القرآن حيث إن عائشة قالت: «كنت أغار من النسوة اللواتي قدمن أنفسهن الى رسول الله... إن الله شرّع هذا القانون الذي يقضي بأن يمنح محمد الأمل لمن يرغب، وأن ينال ما يرغب». ويقول المؤلف: «لقد ادعى مرجع أوروبي أن محمداً كان رديء السمعة بين العرب لشهوانيته، واحتفظ بحقه بالاستفادة من زوجات الرجال الآخرين لكي يَلد الأنبياء والأولاد الصالحين». ويناجي المؤرخ سان بيدرو محمداً مُشيراً الى امتيازه الخاص في قضية ميمونة بنت الحارث: «آه يا محمد، في الحقيقة أقول لك بأنه لا يوجد نبيّ خففّ القيود والقوانين المتعلقة بالمرأة كما فعلت. ولكنك لم تتلقَ هذه القوانين من عند الله، فهل أن ترك امرأة لزوجها وأولادها وذهابها مع رجل آخر ضد رغبة زوجها هو عمل يسر

الله؟». وينسب المؤلف الى المرجع (ريبرو بيشو) قوله: «أُحضرت الى محمد امرأة تُدعى مارية القبطية، فاتخذها محظيته. وقد حدث أن خلا بها في بيت زوجته حفصة. وعندما رجعت زوجة محمد رأتهما فأثار هذا غضبها؛ واقتربت منه قائلة: يا نبي الله، ألا يوجد بين نسائك امرأة أحقر مني؟ لماذا خلوتَ بها في بيتي؟، فأجابها محاولاً تهدئتها واسترضاءها: هل يسرك لو أنني امتنعت عنها؟ فأجابته (نعم)؛ فأقسم أن لا يقرب مارية مرةً ثانيةً وقال لحفصة: لا تخبري أحداً بهذا الأمر! وبعدئذ نكث بقسمه ووعده وعاد إلى مارية ثانية. ومن ثم جاء في قرآنه في هذا الصدد ما معناه: إذا أقسم المسلمون قسماً ثم رغبوا أن ينكثوه، فبإمكانهم أن يفعلوا ذلك على أن يكفّروا بعد ذلك عن خطئهم دون الإلتزام والتقيد بقسمهم».

ويقول المؤلف: «لقد تبنى الكاتب اللاتيني «سان بيدرو» رأي أعداء محمد المعاصرين وذلك بقوله: إن اصطناع الوحي عند النبي ما هو إلا دليل على التظاهر الكاذب بالفضيلة والدين، أو إن الشيطان قد تلبس في شخصية محمد، وأعتقد بأن ولع محمد بعائشة ليس بعمل جدير بنبي». ويُشارك المؤلف منتقدي محمد في موضوع تعدد زوجاته فيقول: «ليس ممكناً ذكر قوائم بأسماء زوجات محمد فهنَّ كثيرات...». ويقول المؤرخ «سان بيدرو» معللاً تعلق النساء بمحمد: «لقد كان محمد يلبس الحُليّ، ويتعطر بالروائح، وهكذا كانت رائحته جميلة. وكان يلّون شفتيه ويكحّل عينيه، وكان يفعل كما يفعل زعماء المسلمين (زعماء فاتحي الاندلس من المسلمين) اليوم. وعندما انتقد أتباع محمد النبيّ على تصرفه هذا أجابهم بأنه مُنح ثلاث متع في هذه الدنيا: الطيب والنساء والصلاة. «وكم تبدو هذه الأشياء مُعيبة في نظر المسيحيين» ويقول المؤلف «في نظر مسيحي القرون الوسطى، فإن تصرفات محمد مع النساء كافية وحدها لأن تجعل محمداً غير نبي».

وينسب المؤلف الى سان بدرو رواية موت محمد فيقول: «توفي محمد متأثراً بالسم الذي تناوله في الطعام مع صديق له عند يهودية جميلة. لقد دست تلك اليهودية السم في ذراع حَمَل. وعندما شعر محمد بالسم، عند تناوله الطعام، بصق. ولكن صديقه توفي في الحال. وعندما سأل محمد اليهودية عن السبب في قيامها بذلك العمل أجابته لأنه استبعد اليهود. واعتقدت أنه إذا توفي محمد سيعود اليهود إلى سابق ازدهارهم. ولكن إذا كان محمد نبياً حقاً فسيعرف موضوع السم ولن يلحق به أذى». وهناك روايات أخرى شبيهة بالرواية المذكورة، ذكرها المؤرخ «فيتري» ومؤلف «الجدل السرياني» فيقولان: «إن كتف الحمل خاطب النبي قائلاً: إنني مسموم، فاحذر، ولا تأكل مني». وهنا يتساءل «فيتري» إذا كان محمد قد عرف أن الطعام فيه سُم، فلماذا لم ينقذ رفيقه ونفسه؟ ولماذا لم تنقذ المعجزات محمداً؟». وينسب المؤلف الى المؤرخ «سان بيدرو» قوله: «هناك عدة نقاط يجب ملاحظتها في وفاة محمد: كان هناك عشرون شعرة بيضاء في لحية النبي عند وفاته، وقد توفي يوم الإثنين في بيت عائشة. وقد دفن تحت السرير الذي توفي فيه في منتصف ليل اليوم الثالث لوفاته. واستناداً الى قول عائشة: إنه غسّل وجهه وصبّ عليه الماء عند وفاته. وهنا يقول المسيحيون: «إن محمداً بفعله هذا حاول أن يُعمّد نفسه، ولكن الشياطين منعته من القيام بذلك». وينسب المؤلف إلى أحد المؤرخين قوله: «لقد شتم محمد المسيحيين واليهود وهو على فراش الموت وذلك لأنهم يبنون الكنائس على قبور أنبيائهم. وتقول رواية أخرى أن محمداً قال، وهو مريض، إنه سيكتب كتاباً، ولن يخطىء المسلمون بعد وضعه ذلك الكتاب، ولكن الناس الذين كانوا متواجدين حوله تجادلوا حول هذا الموضوع. وقال بعضهم إن القرآن كافٍ. ويعتقد المؤلف المذكور أن المسلمين، منذ وفاة محمد، وهم على خطأ. وهناك نقطة هامة وهي أن محمداً قد مات ووضع في التراب، بينما المسيح قد أُرسل الى السماء». ويقول المؤلف: «هناك روايات مخزية تتحدث عن موت محمد كانت سائدة في القرون الوسطى. بعض هذه الروايات

يقول أن محمداً قد أكلته الكلاب، أو الخنازير. ومن الذين يقرون بهذه القصة المؤرخ «ألان». ويقول جيرالد «بما أن محمداً قد علّم الوساخة والعار، لذا أكلته الخنازير التي تعتبر من الحيوانات الوسخة. بينما يقول المؤرخ «لودولف» أن نوبة صرع انتابت محمداً وهو في الصحراء، وهكذا التهمته الوحوش الكاسرة. وهناك رواية مسيحية تقول إن يهودية ماكرة، وكان يرغبها محمد، قد أصرّت على النبي أن يختلي بها ليلاً في بيتها، وعندما فعل ذلك، قتله أقرباء تلك المرأة، وقطعوا قدمه اليسرى ورموا بقية جسده الى الخنازير التي التهمته سريعاً. ثم قامت المرأة اليهودية بطلاء قدم النبي بالمرهم وعطرتها. وعندما حضر الناس ليستفسروا عن محمد قالت لهم إن الملائكة قد حضرت وأخذت معها محمداً الى السماء. وهناك روايات كثيرة وصفت نقل جسد محمد الى السماء بواسطة الملائكة».

ويقول المؤلف إن للعنف أهمية مضاعفة في علاقات المسيحية والإسلام: لقد استعمل الإسلام القوة؛ وكذلك الامر، استعملت القوة ضده. ويعتبر استخدام القوة عنصراً بارزاً للديانة الاسلامية، وهي إشارة واضحة لخطئه». ويُعلّل المؤلف بلسان اللاهوتيين أسباب الحملات الصليبية بالقول «إنها حرب مقدسة لأن غايتها كانت استرجاع أرض كانت ملكاً للمسيحيين. إذ إنه كان يُنظر الى المسيحيين على أنهم أُمة واحدة، وعندما ظهر الاسلام سرق ثلث مناطق الكنيسة اللاتينية. ولذا، تحدث كتّاب كثيرون عن الحملة الصليبية. فقال القديس «بيرنارد» إنه كان واجباً، الدفاع عن أرض المسيح. بينما قصّ «فيتري» كيفية انتزاع الشرق من النصرانية، وبالطريقة نفسها رأى المؤرخ «روديريك» أن محمداً أضل إسبانيا. ولذا، يمكن اعتبار هدف الحروب الصليبية استرجاع أرض مغتصبة من تحت نير الحكم الاسلامي».

ويتحدث المؤلف عن الدعاية التي كانت منتشرة في اوروبا والتي تتحدث عن انتهاك المسلمين لأماكن عبادة المسيحيين في الأراضي المقدسة. وكانت هذه الدعاية من أسباب الحروب الصليبية. ولهذا يجد المسيحيون لذة، بل يعتقدون أن من واجبهم تدنيس الجوامع.

ويقول المؤلف إن الكتّاب الغربيين نظروا الى المؤسسات الدينية والإجتماعية الاسلامية نظرة الريبة والشك والرعب. وينظر المسيحيون إلى الزواج، مثلاً، على أنه علاقات لا تنفصل عُراها إلا بالموت. فالزواج لا يعني العلاقات الجنسية فقط. ومن جهة أخرى، فإن الاسلام يؤمن بتعدد الزوجات. وفي هذا الصدد، يقول المؤرخ «بيدرو»: «بإمكان المطلق أن يتزوج أربع نساء، حيث بإمكانه أن يطلقهن ويتزوج مرة ثانية». وتحدث العديد من المؤرخين عن تعدد الزوجات في الاسلام. وهكذا، فهناك قوة في الرفض المسيحي لحرية تعدد الزوجات في الاسلام الذي لا يعتبر هذا فضيحة. ثم يذكر المؤلف الزواج المؤقت، المتعة، عند الشيعة. هذا على الرغم من أن القرآن قد حرّم هذا الزواج الذي يقوم على أن يفعل الرجل ما يشتهيه. ويقول المؤلف أنه ليس من الممكن إزالة الأخطاء من النظرة إلى الإسلام تماماً؛ هذا مع العلم أنه ليس بالإمكان إنكار أن الحقيقة هي ممزوجة بالخطأ. والصعوبة تكمن في الوصول إلى الحقائق. ولذا، هناك ازدواجية في فهم الإسلام: الحقيقة وعدمها. ويشهد القرآن بحقيقة الكتاب المقدس وبوجود إله واحد، ويؤكد على نبوة المسيح، وهو بتأكيده هذا يؤكد جملة حقائق. ولذا، ليس خطأ تسمية المسيح بالنبي، والخطأ يكمن في إنكار ألوهيته في نظر المسيحيين. وينسب المؤلف الى المؤرخ سان بيدرو قوله: «إن محمداً قد علّم أتباعه الشرور الكثيرة، أكثر مما كانوا يقومون به وذلك عندما حاولوا تقليد سيدهم». ويضيف بيدرو قائلاً: «إن العديد من المسيحيين المثقفين لم يُلاحظوا دين الانجيل؛ ومع ذلك، فهم يعتقدون، بصورة مطلقة، أنه حق وجيد. وهم لا يقلدون القرآن الذي يعتقدون أنه مُزّيف».

ويقول المؤلف أنّ هناك إشارات عديدة في التواريخ

البلاد السوفياتي وسيبيريا، لمشاهدة إحدى الورقات التي تحتفظ بها الادارة الدينية هناك، وهي محفوظات في داخل خزانة ثمينة وجميلة. وقال لي فضيلة الشيخ المذكور بأن هذه الورقة أُخذت «خفيةً» من المصحف العثماني أثناء نقله من أوفا إلى طشقند قبل نحو خمسين سنة، وذلك لأن مسلمي أوفا يعتقدون بأن خلو مدينتهم من هذا الأثر الشريف يعرضهم للكوارث والمتاعب، لذلك لجأوا إلى استلال هذه الورقة من المصحف واحتفظوا بها في إدارتهم الدينية، حيث وضعوها تحت الحراسة المشددة، وهم لا يظهرونها إلاَّ في المناسبات الدينية الرئيسية وعندما يزورهم كبار الشخصيات من ضيوف الاتحاد السوفياتي.

المصاحف المخطوطة الأخرى في مكتبات الاتحاد السوفياتي

بعد أن رافقنا «المصحف العثماني» المنسوب إلى عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين في رحلته الطويلة، من خارج بلاد الاتحاد والسوفياتي إلى داخلها، إلى حين ألقينا عصا التسيار وأنهينا هذه الرحلة عند طشقند حيث تركنا المصحف في خزانة متحف الآثار بهذه المدينة. ها نحن أولاد نستأنف التجوال في مكتبات الاتحاد السوفياتي؛ الحكومية والاسلامية لتقديم فكرة واقعية عن بقية المصاحف المخطوطة الأخرى التي تحتفظ بها هذه المكتبات، والتي حصلت عليها في مناسبات مختلفة وعن طرق مختلفة أيضاً.

المصحف في أيام كاترين الثانية امبراطورة الروسيا

في أيام هذه الامبراطورية سمعت بيروت هدير قنابل القراصنة الذي اقتحموا سورها الذي بناه أحمد باشا الجزار، ونصبوا مدافعهم النحاسية في سهلات البرج، التي عرفت منذ ذلك الحين باسم «ساحة المدافع» (Place de Canons). وهذه الامبراطورة التي تجاوبت مع طموح بني قومها في الوصول إلى المياه الدافئة (البحر الابيض المتوسط)، كانت تستخدم في عربتها القبطان **كوكوفتسوف** (١٧٤٥ - ١٧٩٣ م) مصنِّف كتاب المغرب (١٧٨٦ - ١٧٨٧ م)، والذي صدر عنه طبعة للقرآن الكريم تولت الانفاق عليها الامبراطورة المذكورة. ولأسباب سياسية كادت تمر هذه الطبعة دون أن يشعر بها أحد في داخل الروسيا، بالرغم من أنها أحدثت ضجة كبرى في جميع أقطار أوروبا في ذلك الحين. على أننا لا نستطيع بيان ما إذا كانت هذه الطبعة صورة طبق الأصل عن مصحف مخطوط أو أنها كانت بالحروف الطباعية الحديثة. ومن سوء حظنا أننا عندما كنا نزور الاتحاد السوفياتي خلال شهر (تموز/يوليو سنة ١٩٧٩ م)، لم تتهيأ لنا الفرصة للإطلاع على هذه النسخة التي نرجو أن تواكبنا الظروف المقبلة لتحقيق هذه الغاية العلمية المفيدة.

المصاحف المخطوطة في المكتبة العامة بلينينغراد

في ضاحية **تسارسكوي سيلو** القريبة من بطرسبورج (لينينغراد حالياً) نشأ **خانيكوف** (Khanikov)، ولما

بلغ التاسعة عشر من عمره حمل عصا الترحال قاصداً بلاد المسلمين، مثل بخارى والقفقاس، ثم وصل إلى ايران حيث عُيِّن قنصلاً لبلاده في مدينة تبريز التاريخية، ومن خلال تعرفه على المسلمين وبلادهم اتجاه للعناية بالآثار الاسلامية والمخطوطات العربية والفارسية، ولما عاد إلى بلاده نقل إليها معه صوراً من حملة نابليون على مصر للمصور الفرنسي مارسيل، ومجموعة من المخطوطات الشرقية فيها كتاب « ميزان الحكمة » ـ في الفلسفة ـ لمؤلفه أبو جعفر المعروف بالخازني، من علماء القرن الثاني عشر الميلاد، وهو عجمي النسبة، خبير بالحساب والهندسة، وعالم بالأرصاد والعمل بها ـ كذا قال عنه القفطي في كتابه « أخبار الحكماء »، وقد نشر قسم من هذا الكتاب في [المجلة الشرقية الأميركية ـ ج ٨٥، ص ١٢٨].

كما أن خانيكوف المذكور نقل معه كتاب « تاريخ الخلافة » للصولي، ومجموعة أخرى من الكتب الشرقية. ومن أهم ما قدمه، لمكتبة بطرسبورغ في حينه، مجموعة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي. وإننا نعتقد بأن هذه المجموعة ما تزال موجودة بالمكتبة الوطنية الحالية في لينغراد، وربما كانت هي التي اطلعنا على بعض نسخها أثناء وجودنا في هذه المدينة، خلال زيارتنا للاتحاد السوفياتي.

وعندما يكون المصحف المخطوط موضوعاً لحديثنا، فلا بد لنا من الإشارة إلى المستشرق **كراتشكوفسكي** (Krathovski) الذي ملأ الدنيا وشغل أهل الفكر وعلماء العربية، بما ألفه أو حققه أو نشره من تراث العروبة والاسلام. وأمَّا بالنسبة إلى المصحف المخطوط، فإن كراتشكوفسكي دوَّن في نشرة مجمع العلوم مجموعة من مخطوطات القرآن الكريم **لأوزبتزكيّ** وذلك سنة ١٩١٧ م، بالإضافة إلى المخطوطات العربية الأخرى التي أحضرها من القوقاز؛ وقد وضع المخطوطات القرآنية والعربية يومذاك في القسم الآسيوي من متحف مجمع العلوم.

وإن كراتشكوفسكي يستحق دراسة أوسع، سنقدمها فيما بعد إن شاء الله عند كلامنا عن الاستشراق السوفياتي.

واوزبنزكي (Uspenski)، الذي ذكرناه في معرض كلامنا عن كراتشكوفسكي، كان يملك مجموعة من المصاحف المخطوطة حصل عليها من مدينة طرابزون التركية، وهي التي ما تزال موجودة في متحف مجمع العلوم الذي أشرنا إليه قبل حين.

ومن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر الميلادي، ما اهتمت به السيدة **فيرا كراتشكوفسكايا**، زوجة كراتشكوفسكي، التي كانت خبيرة بالنقوش الاسلامية؛ وهي التي أصدرت مجلة « الكتابات الشرقية » سنة ١٩٤٧ م. وتعتبر مجموعة « نوادر مخطوطات القرآن » المذكورة من أهم آثارها.

وقبل أن نختم موضوع المصاحف المخطوطة بالاتحاد السوفياتي، فلا يسعنا إلاَّ أن ننوِّه بالجهود التي يبذلها سماحة المفتي الشيخ **ضياء الدين بابا خانوف** في الحفاظ على النسخ الكثير من المصاحف المخطوطة والمرصَّعة بالجوهر والمزينة بالذهب التي ترجع إلى عهود قديمة، وهو يعتز بوجودها في مكتبة الادارة الدينية في طشقند التي تلاقي كل ازدهار تحت رعايته في الوقت الحاضر؛ كما أن سماحته يحتفظ في هذه المكتبة بالعديد من نسخ المصحف العثماني المصورة التي يعرضها للزوار الكثيرين الذين يقصدون هذه المكتبة من داخل الاتحاد السوفياتي ومن خارجه ويحرصون على التبرُّك برؤية هذا المصحف الأثري الكريم. ثم إن بعض المصاحف المخطوطة الموجودة في مكتبة الادارة الدينية في طشقند تستعمل أساساً صالحاً ومصدراً وثيقاً للطبعات القرآنية التي تصدرها هذه الادارة بين الحين والآخر. وعندما بدأت الجمعيات والادارات الدينية ممارسة نشاطاتها الاسلامية، بمعاونة مجلس الأديان التابع للحكومة المركزية في موسكو، فإنها بادرت إلى طبع القرآن الكريم بتصوير لبعض المصاحف المخطوطة. كما أن هناك عدة طبعات صدرت قبل سنة (١٩١٧ م)، اعتمدت على الخط النسخي للمصاحف المخطوطة التي كانت موجودة؛ بل إن بعض الاتقياء كانوا يكتبون بأيديهم العديد من المصاحف مقلِّدين الخطوط النسخية في مخطوطاتهم القديمة، وذلك على عادة المسلمين في التقرُّب إلى الله تعالى عن طريق كتابة المصحف. وقد ظلت هذه العادة قائمة، حتى بعد ظهور الطباعة الحديثة وانتشار المصحف. وقد ظلت هذه العادة قائمة، حتى بعد ظهور الطباعة الحديثة وانتشار المصاحف المطبوعة أو للمصورة على أحدث الوسائل الفنية. ويقول سماحة المفتي الشيخ ضياء الدين باباخانوف في كتاب « المسلمون في الاتحاد السوفياتي »، إن هناك عدة نسخ من القرآن الكريم صدرت في العهد القيصري، وهي مكتوبة باليد على أساس الخط النسخي المعروف بالبخاري.

وفي سنة (١٩١٣ م)، قبيل الحرب الكونية الأولى، تم في طشقند طبع أول نسخة مصورة بالخط النسخي من القرآن الكريم، أخذت عن المصحف الذي كتبه الخطاط الاوزبكي الشهير **ميرزاخوجاندي**، وهو من أبناء هذه البلاد. وفي سنة (١٩٥٥ م)، قامت الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاغستان ـ بمبادرة من الشيخ ايشان (احسان) باباخانوف ابن عبدالمجيد خان، المفتي السابق لطشقند ووالد سماحة الشيخ ضياء الدين باباخانوف خليفته في هذا المنصب الاسلامي الكبير ـ قامت هذه الإدارة بإعداد طبعة جديدة من القرآن الكريم، حققتها لجنة من أشهر علماء الاسلام في الاتحاد السوفياتي أُلّفت خصيصاً للقيام بهذا العمل الجليل؛ وهذه اللجنة استحسنت طبع القرآن الكريم نقلاً عن الأصل الصادر في مدينة قازان، سنة (١٩٠٨ م)، وقد انتهت الطبعة المذكورة سنة (١٩٥٧ م)، وهي مطبوعة على ورق جيِّد قدمته الحكومة السوفياتية لمواطنيها المسلمين بدون مقابل مساهمة منها في هذا العمل الصالح.

وفي سنة (١٩٦٠)، أصدرت الإدارة الدينية لمسلمي طشقند وقازاغستان طبعة أخرى من القرآن الكريم، وذلك عن الأصل الذي طبع به في القاهرة، وهذه الطبعة من حجم كبير الكبير، وفي آخر صفحاتها كتبَ باللغة التركية الأوزبكية، العبارات التالية ـ وقد طبعت بمبادرة من سماحة الشيخ ضياء الدين باباخانوف حفظه الله ـ .

خاتمة الطبع

بحمد الله وتوفيقه، أورتا آسيا وقازاغستان مسلمانلري رينية نظارني نك تابشيريخي ن أوشبو قرآن كريم تاشكند شهريده كي ٤ نجي باسمه خانه ده طع ايتيلدي.

سنة ١٣٧٩ هـ/ سنة ١٩٦٠ م

وعندما كنت موظفاً في دار الكتب الوطنية، قبل نحو عشر سنوات، زار السفير السوفياتي في بيروت هذه الدار، وأهداني نسخة من الطبعة المذكورة، وكتب عليها توقيعه الشخصي تذكاراً لهذه الزيارة. وما أزال أحتفظ بهذه النسخة في خزانة كتبي حتى اليوم، اعتزازاً بهذه البادرة التعبيرية اللطيفة من قبل السفير السوفياتي الكريم.

وفي سنة (١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م)، بدأت الاستعدادات في العالم الاسلامي للاحتفال بمرور (١٤٠٠ سنة) على نزول القرآن الكريم على قلب النبي **محمد صلى الله عليه وسلم**، سيد المرسلين والخلق أجمعين؛ لذلك قررت الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاغستان المشاركة في هذه الاحتفالات. وبهذه المناسبة، أعادت طبع القرآن الكريم على أساس النسخة المطبوعة سنة (١٩١٣ م) التي ذكرنا بأن كاتبها هو ميرزا هاشم خوجاندي ـ وهي أيضاً بالخط النسخي الذي كتبت به النسخة السابقة. وقد كتب على الصفحة الأولى من هذه الطبعة العبارة التالية:

﴿في كتاب مكنون لا يَمسُّه إلاَّ المطهرون، تنزيل من رب العالمين﴾.

هذا القرآن موافق في الرسم لمصحف سيّدنا عثمان رضي الله عنه، ١٣٨٨ هجري.

وجدير بالذكر، أن المقصود بالرسم العثماني كما هو مكتوب هنا، الناحية الاملائية وليس الناحية الشكلية، لأن المصحف العثماني رسم كما هو معروف بالخط الكوفي، وليس بالخط النسخي كما هو الشأن في هذا القرآن الكريم.

كما كتب على الصفحة الأخيرة من المصحف العبارات التالية:

القرن التاسع عشر، منطلقاً من جذور هذه الصلاة التي بدأت بأول احتكاك عسكري بين العرب والرومان عبر الحملة التي قام بها القائد الروماني (أليوس كالوس) عام (٢٤ ق. م) ضد العرب. ويستعرض الإحتكاك الثاني من خلال الحملات العربية على أوروبا، مروراً بالحملات الصليبية التي أدت الى استعمار سورية، والغزو الإسلامي التركي لشرق أوروبا، وانتهاءً بحملة نابليون بونابرت على مصر عام (١٧٩٨).

وفي الجزء الثاني من هذا الفصل، عرض للعلاقات العربية ـ الإسلامية الدبلوماسية مع أوروبا، ابتداءً من زمن النبي محمد، الذي أرسل مبعوثيه إلى عدة حكام أوروبيين لإقناعهم باعتناق الدين الإسلامي. وظهرت ملامح العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين في العصر العباسي أثناء حكم المنصور، حيث أقيم المبعوثون والسفراء بينه وبين ملك الفرنجة. ويشير من ضمن ما يشير إليه إلى أول اتفاق ينص على امتيازات للعرب والاوروبيين أُبرم بين تجار (بيزا) الإيطالية وبين المغرب عام (١١٣٣ م). وأهم تمثيل دبلوماسي كان بين الشريف حسين من جهة وفرنسا وانكلترا من جهة ثانية، للتعاون ضد الأتراك مقابل دعم استقلال العرب.

الرحالة والمستكشفون

يخصص الكاتب الفصل **السابع** للحديث عن الرحالة والمستكشفين، عارضاً الأسباب التي كانت تؤدي إلى الرحلات بحيث كانت الدوافع لدى العرب قديماً دوافع تجارية وهي تتم اليوم بالنسبة اليهم لتحصيل العلم؛ في حين كانت الرحلات الأوروبية لإداء فريضة الحج في فلسطين إضافة للتجارة وحب الإستكشاف، كما كانت في العصور الوسطى دافعاً لتحصيل العلم في الاندلس على وجه الخصوص. ويعدد أهم الرحالة الأوروبيين القدماء كالمطران أركولف الفرنسي الذي كان أول حاج أوروبي إلى فلسطين، والحاج الإنكليزي المؤرخ «ويلبالا».. الذين كانوا يتحدثون عن الأهوال والمصاعب التي يتلقونها في رحلاتهم. ويشير الكاتب إلى أن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدا ازدياداً ملحوظاً في الرحلات إلى بلاد العرب، وبالتالي نشط الأدب المعروف بأدب الرحلات. ومن جهة العرب، فهو يرى أن اهتمامهم بأوروبا كان ضئيلاً جداً قبل القرن التاسع عشر، لكن في هذا القرن بدأوا رحلاتهم إلى أوروبا بدوافع الدراسة، والتجارة أو التداوي أو التمثيل الدبلوماسي، بحيث نقل بعضهم انطباعاته عن أوروبا، كـ «رفاعة الطهطاوي» الذي كتب كتاب (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) عام (١٨٣٤). كما برع في هذا المجال «أحمد فارس الشدياق» و «خير الدين التونسي» اللذين أشادا بالمعرفة في أوروبا، رغم انتقاد الكثير من جوانبها.

تأثيرات أوروبا في حضارة العرب الحديثة

في الفصل **الثامن**، ينطلق الكاتب من مقدمات التأثير الأوروبي في حضارة العرب منذ القرن السادس عشر عن طريق الاتفاقات، بدل الغزو العسكري المباشر، التي تمت بين السلطنة العثمانية وفرنسا وذلك لأهداف التجارة الأوروبية في أراضي الإمبراطورية العثمانية، وتطورت هذه الاتفاقات في القرنين السابع عشر والثامن عشر بحيث نشأت المستعمرات الأوروبية في الموانىء والمدن العربية.

هذه المقدمات، كانت المدخل للغزو الثقافي الأوروبي الذي تتوّج بإنشاء الجامعة الأميركية في بيروت عام (١٨٦٦)، وجامعة القديس يوسف عام (١٨٧٤). لأن هذا الغزو استهدف في بدايته الموارنة في لبنان. في حين كانت حملة نابليون بونابرت على مصر عام (١٧٩٨)، بداية الغزو الثقافي والفكري العربي للبلدان الإسلامية، وبذلك تم الخضوع العربي لأوروبا.

ورغم ظهور الحركات الفكرية الإسلامية لمقاومة الغزو

على يد «الحركة الوهابية» في نجد، وحركة جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده في مصر، بحيث وجه الأخيران الدعوات من أجل إصلاح هذا التدهور وإعادة مكانة الإسلام، فقد بقي الغزو الغربي بارزاً أظافره في تراث الإسلام وترك بصماته على مختلف مجالات الحياة الشرقية: في الأدب والتعليم والأنظمة السياسية والحياة الإقتصادية. ولكن بقي التأثير الديني في مجال الأحوال الشخصية.

البعثات التبشيرية

الفصل **التاسع**، هو عبارة عن نبذة عن البعثات التبشيرية التي قام بها المسلمون باتجاه الغرب، والعكس بالعكس. وهذه الأعمال اختلفت تماماً عن الأعمال الحربية، والتي كانت تتخذ الإقناع وسيلة لها. ويرى الكاتب أنه، رغم التقدم الذي حققه الفريقان في إفريقيا، فقد فشل أي منهما في كسب جماعة الآخر. ومن الأمثال على ذلك أن الإرسالية البروتستانتية التي جاءت برئاسة التشيكي (دو بودور) وقامت بنشاط تبشيري بين عامي (١٥٧٧ و ١٥٨١)، لم تستطع أن تدخل في ديانتها سوى مسلم واحد. كما أن العرب، الذين أنشأوا الجوامع في أوروبا خاصة في القرن العشرين، عجزوا عن اختراق المسيحيين بأي رقم يذكر.

اللغة العربية

الفصل **العاشر** والأخير من الكتاب يتناول في عدة سطور أهمية اللغة العربية الفصحى في المجتمع العربي، ويعتبر أنها أهم عوامل الوحدة العربية. ويشير إلى الإسبان الذين اقتبسوا عنها حوالى أربعة آلاف كلمة، معتبراً أنها لغة حيَّة تتصف بكثرة مفرداتها؛ مما يسهِّل عليها استيعاب المفردات العلمية الآتية من الخارج بحيث أنشئت عدة مجامع لغوية لهذا الغرض في كل من مصر وسورية والعراق؛ مستنتجاً في النهاية أنها لغة عصرية، بدليل انتصارها على جميع المنادين باستعمال اللغات المحكية أو اللاتينية.

قامت به الإدارات الدينية من تبويب الموضوعات التي تضَّمنها القرآن الكريم في هذه الطبعة الجميلة الأنيقة، وإن هذا العمل قد أسدى، من غير شك، خدمة كبيرة للراغبين في الإفادة من هذا الكتاب الالهي المقدس، فيما يتصل بتمكينهم من معرفة الآيات التي تبين هذه الموضوعات بحسب أرقامها والسور التي وردت فيها؛ وفي ذلك من التيسير والتسهيل على هؤلاء الراغبين، إذ يصلون إلى بغيتهم دون أن يتكلَّفوا عناء البحث عن الآيات المطلوبة، عن طريق مراجعة القرآن بكامله كلما احتاجوا إلى ذلك. ولعل الذين قاموا بهذا التبويب العلمي المفيد قد استأنسوا بالدراسة التي قام بها المستشرق الفرنسي جول **لابوم** (Jules La Beaume) في كتابه «القرآن المفصل» (Le Koran anolysé)، الذي نشره في باريس سنة (١٨٧٨ م)، ونقله إلى اللغة العربية محمد فؤاد عبدالباقي، في شهر شعبان عام (١٣٤٢ هـ)، الموافق ٨ مارس/آذار سنة (١٩٢٤ م)، وجعل عنوانه «تفصيل آيات القرآن الحكيم»، وهذا الكتاب مقسَّم إلى (١٨) باباً، هي: التاريخ ـ محمد صلى الله عليه وسلم (التبليغ) ـ بنو اسرائيل (التوراة) ـ النصارى ـ ما بعد الطبيعة ـ التوحيد ـ القرآن ـ الدين العقائد ـ العبادات ـ الشريعة ـ النظام الاجتماعي ـ العلوم والفنون ـ التجارة ـ علم اجتماعي ـ العلوم والفنون ـ التجارة ـ علم تهذيب الاخلاق ـ النجاح ـ .

وتحت كل باب منها، فروع تبلغ جميعها (٣٥٠) فرعاً، وتحت كل فرع جميع ما ورد فيه من آيات التنزيل، ممّا لم يسبق جمعه وتنسيقه في كتاب.

هذا، وإنَّ عمل اللجنة المذكورة جدير بالتقدير والثناء، وهو مدخل إلى التوسُّع في هذا الموضوع بما يتمم الفائدة منه إن شاء الله.

وبعد، هذا ما تيسّرت لنا معرفته عن المصاحف المخطوطة الموجودة في الاتحاد السوفياتي بالإضافة إلى المصحف العثماني، وجدير بالذكر أن بعض هذه المصاحف، التي شاهدناها فعلاً في جمعية المستشرقين السوفيات بلينغراد، ترجع إلى عهود متقدمة، أي إلى أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي؛ ولقد لاحظنا بعضها وقد تطرّزت حواشيه بالتقاسير والشروحات، حيناً باللغة العربية وحيناً باللغات الشرقية الأخرى، وهي محل عناية أعضاء الجمعية المذكورة الذين يقومون بصيانتها لتقاوم عوامل الزمن.

القرآن الكريم المستشرقون السوفيات

الباعث الأساسي الذي دفع العلماء الغربيين إلى التوجُّه للاستشراق، كان وراءه رغبة هؤلاء العلماء في فهم الدين الاسلامي، الذي انتزع المبادرة من الأديان الأخرى في الشرق، واحتوى الشعوب التي تقطن في هذا القطاع الواسع من العالم القديم، وجعلها أمة واحدة تتجه في صلاتها إلى مكة المكرمة حيث الكعبة المعظمة،

وتناجي ربها في صلاتها الذي أدرج من حين نزوله على قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، في القرآن الكريم، الذي يعتبر مفتاح العقيدة الدينية عند المسلمين. وإن الروس، هم كغيرهم من أبناء العالم الغربي، دخلوا فيما دخل فيه سائر الغربيين، ولم يكونوا أقل من غيرهم في الحرص على فهم الدين الاسلامي وأتباعه من خلال هذا الكتاب، الذي يعتقد أهله بأن كلام الله تعالى الذي لا تبديل لكلماته ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وإذا كانت أقطار أوروبا الغربية اتجهت إلى الشرق الاسلامي لدراسة القرآن الكريم، فإن القطر الروسي الواقع في القسم الشرقي من أوروبا وجد ضالته المنشودة في قلب امتداده الجغرافي، ومنذ زمن بعيد. فلما سقطت الامبراطورية المغولية تحت سلطان الروس في القرن السادس عشر للميلاد، خرجت الروسيا من حدودها الاوروبية إلى آسيا، فربط الاسلام بينها ـ بعد أن أصبح فيها ما يزيد عن أربعين مليون مسلم في آسيا الوسطى والقفقاس ـ وبين اللغة العربية بروابط دينية وثقافية وثيقة. ولطالما فاخرت الروسيا بانتسابها إلى التراث العربي الاسلامي، عن طريق الاعلام الذين أنجبتهم بلاد الاتحاد السوفياتي على فترات مختلفة، مثل: **الخوارزمي والبيروني وابن سينا والفارابي**. ولعلَّ أقدم الآثار والمخطوطات والكتابات المرقومة على الأحجار، التي تشير إلى العلاقة القديمة بين الروسيا وبين العرب المسلمين، رسالة على الرق موجهة من صاحب صغد في طاجيكستان «ديواشي» إلى الأمير **الجراح بن عبدالله**، وتاريخها يرجع إلى سنة (٩٩ أو ١٠٠ هجرية)؛ كما وُجد نقش عربي على صوى (حجر من أحجار الأميال) قرب تفليس، يرجع تاريخه إلى القرن الأول الهجري. كتب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، ثلاثة أميال من تفليس». وكذلك عُثر على نقود أرشدت إلى وجود دار لسك النقود في دمانيس قرب تفليس، يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الميلادي، هذا بالإضافة إلى عدة آلاف من سكان بخارى وقاسقاداريا، في آسيا الوسطى اليوم، من أصل عربي؛ ونحن نجهل كيف وصل هؤلاء العرب إلى المواطن المذكورة، فهل هم من بقايا الفاتحين الذين جاءوا مع قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي فتح تلك البلاد، أم هم من أهالي سورية والعراق الذين حملهم تيمورلنك معه أسرى عندما احتل هذين القطرين في القرن الرابع عشر الميلادي؟

وأياً ما كان الرأي في هذا الموضوع، فإن الروس عرفوا العرب عن طريق الاحتكاك العسكري في العصور القديمة، كما عرفوهم عن طريق الاحتكاك الثقافي في العصور الحديثة؛ وكان القرآن المدخل الذي توسلوا به إلى معرفة سر الاسلام وأوضاع المسلمين.

الطبعة الأولى للقرآن في الروسيا

عرضنا من قبل اسم القائد البحري كوكوفتسوف (١٧٤٥ ـ ١٧٩٣ م)، على أنه أول من طبع القرآن

الكريم في الروسيا، وكان ذلك بين (١٧٨٥ - ١٧٨٧ م). وأن الامبراطورة **كاترين الثانية**، هي التي انفقت تكاليف هذه الطبعة التي تكرّرت أربع مرات بعد ذلك في سنوات (١٩٧٠، ٩٣، ٩٦، ٩٨)؛ ثم طبع في قازان سنة (١٨٠١). وإذا كانت هذه الطبعات لم تلفت الأنظار إليها في الروسيا نفسها، فإن بقية الأقطار الاوروبية اهتمت بها كثيراً وأثارت فيها ضجة كبيرة.

هذا، مع العلم، بأن أول طبعة للقرآن الكريم باللغة العربية ظهرت في العالم، بل أول كتاب عربي طبع هو القرآن الكريم، الذي اعتنت به مطبعة **بغانينودي بغانيني** في مدينة **البندقية** بإيطاليا. وقيل إن هذه الطبعة صدرت ما بين سنة (١٥٠٩ و١٥٣٨ م)، ولكن هذه الطبعة لم تصل إلينا، مع الأسف الشديد، لأن الكسندر السابع بابارومل في ذلك الحين غضب، وأمر بإحراق جميع النسخ المطبوعة. وقد نَوَّهت بهذه الطبعة المستشرقة الايطالية **أولغابينتو** في كتابها «المؤلفات الايطالية في الإسلام»، ويقول الاستاذ يوسف اسعد **داغر** صديقنا وزميلنا في دار الكتب الوطنية في بيروت، المفهرس اللبناني الذائع الصيت، إن الطبعة العربية الأولى للقرآن التي ظهرت لأول مرة في أوروبا، ذكرها المفهرس الهولندي المشهور **أربينوس**، وذلك في الصفحة (٨) من الفهرس الذي أعده للكتب العربية، والذي ظهر في ليدن عام (١٦٢٠ م). وهو يشير إلى أن هذه الطبعة ظهرت في البندقية بالمطبعة المذكورة.

كما ذكر هذه الطبعة أيضاً، المفهرس الالماني **شنورر** في كتابه الذي صدر باللاتينية عام (١٨١١ م) بعنوان «المكتبة العربية»، وهو فهرس استعرض فيه أسماء الكتب العربية التي طبعت في أوروبا حتى تاريخ صدور كتابه هذا.

وهكذا نرى أن القرآن الكريم طبع في أوروبا قبل أكثر من (٢٥٠) سنة من طبعه في الشرق الاسلامي، وأنه في الوقت نفسه أول ما طبع من الكتب العربية إطلاقاً.

أما أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية، فهي التي قام بها **يوهانس أوبورتيوس** الذي ترجم القرآن للاتينية في مدينة **بال** السويسرانية، وكان ذلك عام (١٥٤٢ م). ويقول المؤرخ الانكليزي **ستاينبرغ** في كتابه «الطباعة خلال ٥٠٠ سنة»، إن هذه الترجمة حملت يومها مقدمتين: إحداهما، لمارتين لوثر. والأخرى، لمساعده ويده اليمنى مياكنتين، أحد كبار علماء عصره المعروفين.

وأما أول كتاب ظهر في قواعدْ اللغة العربية، فقد ظهر في **ليدن**. وهو الذي ألفه **اربينوس** سنة (١٦١٣ م)، وتبعه كتاب «المجموع المبارك في التاريخ» لابن العميد، المعروف بالمسكين، الذي ظهر سنة (١٦٥٠ م) مع ترجمة لاتينية.

المستشرقون الروس يوالون اهتمامهم بالقرآن الكريم

وفي سنة (١٨٣٢ - ١٨٣٦) قدِم **جوتفالد** (Gottwaldt) - (١٨١٣ - ١٨٩٧ م) من جامعة برسلاو إلى الروسيا، لإعطاء دروس خاصة. فكلّفه «قازان» بوضع فهرس للمخطوطات الشرقية الموجودة في مكتبة بطرسبورج (١٨٤١ م). وفي هذه الأثناء نشأت بينه وبين الشيخ محمد عياد **الطنطاوي** (١٨١٠ - ١٨٦١) - من أهل مصر، صداقة شخصية. والشيخ المذكور استدعاه قيصر الروسيا في العام (١٨٤٠ م) للتعليم في مدرسة الألسن التابعة لوزارة الخارجية الروسية، ثم خلف سينكوفسكي (Sinkoviski) على كرسي اللغة العربية بجامعة بطرسبورج، وبقي فيها من سنة (١٨٤٧) حتى سنة (١٨٦١ م).

وإن جوتفالد، هو الذي وضع فهرس المخطوطات العربية بجامعة **قازان** في جزئين؛ كما وضع أول معجم كبير باللغة الروسية، استند على آيات من القرآن الكريم وأبيات من الشعر الجاهلي كشواهد، (قازان ١٨٦١ - ١٨٦٣ م).

وفي سنة (١٨٥٩ م)، قَدِم إلى الروسيا رجل فارسي يدعى **كاظم ميرزا بك**، حيث ارتد عن دينه الاسلامي واعتنق النصرانية، عمل هذا الرجل مدرساً للغة العربية في معهد الرهبان الارثوذكس بقازان، ثم في جامعة بطرسبورع، وفي هذه المدينة ألّف كتاب «مفتاح كنوز القرآن» في الكشف عن مفردات القرآن، وكتب عليه: مقدمة كتاب مستطاب مفتاح كنوز القرآن من تصنيفات ميرزا كاظم بك. وتوفي المذكور سنة (١٨٧٠ م).

وفي ذلك الوقت، برز اسم **كوفالفيسكي** (Kowalewiski) (١٨٠٠ - ١٨٧٨ م) الذي تخصَّص في فقه اللغات القديمة، ومن آثاره ترجمة القرآن الكريم من العربية إلى اللاتينية، إلاَّ أن هذه الترجمة لم تطبع، وما تزال مخطوطة حتى الآن.

كما برز كذلك اسم **سابلوكوف** (Sabloukov) (١٨٠٤ - ١٨٨٠ م) الذي تخرّج من كلية أصول الدين في موسكو (١٨٢٦ - ١٨٣٠)، حيث درس اللغة العبرية. ثم من المدرسة الدينية في ساراتوف، حيث تعلم اللغتين العربية والتتارية، وكان قد انصرف أيضاً إلى الدرسات العربية طوال (١٨) سنة. ومن آثاره «ترجمة القرآن» وهي أول ترجمة علمية إلى الروسية (١٨٧٨ م، ثم تكرر طبعها عدة مرات)؛ وله كتاب آخر عن القرآن الكريم تضمَّن قوانين وتعاليم الاسلام (١٨٨٤ م)، وفيه جدل وحشو.

وبارتولد (Barthold) (١٨٦٩ - ١٩٣٠ م)، الذي تخرج من جامعة بطرسبورج، وعين أستاذاً لتاريخ الشرق الاسلامي فيها. من آثاره، التي نشرها في حوليات المعهد الشرقي التابع للمتحف الآسيوي - في طشقند،

دراسة عن «القرآن والبحر» (١٩٢٥ م)؛ وله أيضاً في الاسلاميات كتاب عن «الاوزاعي» المدفون في الضاحية الجنوبية من مدينة بيروت (١٩٢٩ م).

وعثمانوف (Youchmanov) (١٨٩٦ - ١٩٤٦ م) أحد طلاب جامعة لينغراد ثم أحد أساتذتها فيما بعد؛ وهو من الذين كتبوا القرآن بالترجمة اللاتينية (الصحافة والثورة، ١٩٣٢ م)، بالاضافة الى كتاب «معجم الكلمات الدخيلة، لا سيما العربية، على الروسية (١٩٢٣ م)».

وأغناطيوس **كراتشكوفسكي** (Kratchovski) (١٨٨٣ - ١٩٥١ م)، الذي فتنه الشرق بسحره فانصرف إلى تعلّم لغاته، لا سيما اللغة العربية بالذات، ولهذا المستشرق الكبير آثار قيمة وكثيرة، وهي تزيد عن (٤٥٠) كتاباً ما بين تأليف وترجمة وتفسير وتحقيق ونقد ودراسة، كتبها باللغات الروسية والفرنسية والالمانية والعربية. وأكثر مقالاته نشرها في «مجلة الشرق البتروغرادية»؛ وقد طُبع فهرس مؤلفاته ودراساته من سنة (١٩٢١) حتى سنة (١٩٥٥ م). وإن هذا المستشرق زار بيروت وأشاد بفضل علمائها وأساتذتها في مقالات نشرت خلال السنوات (١٩٤٥ - ٤٦ - ٤٨ - ٥٨)، وقد منح جائزة ستالين من الدرجة الأولى تقديراً لجهوده في حقل الاستشراق؛ ومن أفضل آثاره العلمية ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الروسية، الذي أصدره على حدة مجمع العلوم السوفياتي (١٩٦٤ م)، ومن دراساته القرآنية «معنى كلم **النجم**» في القرآن وتفسير السورة (٥٥) - **الرحمن**. وقد أخذ مجمع العلوم السوفياتي على عاتقه نشر مؤلفات هذا المستشرق، وأنهى منها ستة مجلدات.

وعندما كنت في موسكو (١٩٧٩/٧)، أبديت رغبتي في الحصول على نسخة من الترجمة الروسية للقرآن الكريم التي وضعها كراتشكوفسكي، إلاَّ أن أصدقاءنا المستشرقين الروس اعتذروا من عدم تمكنهم من تلبية رغبتي لنفاد هذه الترجمة، ولعل هذه الرغبة تتحقق في المستقبل عند إعادة طبعها من جديد.

وإن من أحسن التذكارات التي حملتها معي من لينغراد، التي زرتها بدعوة من وكالة الأنباء السوفياتية (نوفوستي) في (١٩٧٨/٧/١٨ م)، أحد كتب هذا المستشرق وعنوانه «دراسات في تاريخ الأدب العربي» الذي طبع بإشراف **كلثوم عودة فاسيليا** في دار النشر «علم» بموسكو سنة (١٩٦٥ م)، وقد أهداه لي الصديق الكريم المستشرق السوفياتي المسلم الاستاذ أنس خالدوف، وكتب لي على غلافه الداخلي: «هدية إلى السيد محمد طه الولي بمناسبة زيارة بلينغراد، ١٩٧٩/٧/١٨».

وسيمينوف (Semenov)، (١٨٧٣ - ١٩٥٨ م)، الذي تخرج من كلية لازاريف، وانتدب للتدريس في طشقند ثم عيِّن مديراً لكلية التاريخ بمجمع العلوم في طاجسكتان. وقد اشتهر سيمينوف بسعة معرفته لآسيا

الوسطى وعلاقة الاسلام في هذه المنطقة ببقية أنحاء الاتحاد السوفياتي. وان هذا المستشرق اهتم بصورة خاصة بدراسة الحركة الاسماعيلية، وتوفر على تحقيق مخطوطات هذه الحركة الباطنية، وله دراسة نشرت في مجلة « ايران » سنة (١٩٢٧)، عنوانها « القرآن في نظر الاسماعيليين ».

والمستشرق اسكندر **تشوسكو** (Chodzko)، (١٨٠٤ - ١٨٩١ م)، كان هذا المستشرق ضليعاً باللغات الشرقية لا سيما الفارسية. سافر إلى بلاد العجم (ايران) وكتب عن الاسلام وعن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك كتب عدة أبحاث ودراسات عن القرآن الكريم. توفي **تشوسكو** في ليتوانيا في (٢٠ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٨٩١ م).

ومن المستشرقين الروس **كازيمرسكي**، وهو من أصل بولوني توفي سنة (١٨٧٠) ترجم له يوسف **اليان سركيس** في كتابه « معجم المطبوعات العربية والمعربة »، قال: ولد في بولونيا، واستوطن فرنسا ونشر فيها مطبوعات شرقية مفيدة، لا سيما معجمه الكبير العربي الفرنساوي. وقد نقل القرآن الشريف إلى الفرنسية وترجمته معروفة بدقتها وسلالتها.

ولهذا المستشرق كتب أخرى منها: « حكاية أنيس الجليس »، منتخبة من كتاب **ألف ليلة وليلة**، طبعت مع ترجمتها إلى اللغة الفرنسية وبعض ملحوظات للمترجم، وكتاب اللغتين العربية والفرنساوية، ويعرف بقاموس كازيمرسكي؛ أعاد طباعته في مصر **عبيد غلاب** أحد المترجمين في دار الطبعة الخديوية، بأربعة مجلدات سنة (١٨٧٥).

ومن النساء الروسيات اللاتي عنين بالدراسات القرآنية، فيرا **كراتشكوفشكايا** (Krachkovskaya) المولودة عام (١٨٨٤ م) زوجة المستشرق كراتشكوفسكي، وهي خبيرة بالنقوش الاسلامية. وقد أصدرت مجلة « الكتابات الشرقية » (١٩٤٧ م)، من آثارها: « نوادر مخطوطات القرآن من القرن السادس عشر » (١٩٦٠).

وكاشتاليفا (Kashtaleva) (١٨٩٧ - ١٩٣٩ م)، تخرجت من جامعة موسكو. من آثارها في الدراسات القرآنية تقارير نشرتها في مجمع العلوم وهي، « مصطلحات: **أناب - وأسلم - وأطاع - وشهد - وحنف** في القرآن »، و« التاريخ الزمني لسور القرآن **الثامنة** (الانفال) **والرابعة والعشرين** (النور) **والسابعة والاربعين** (محمد) - (١٩٢٧). وحول ترجمة الآيتين (٧٧) و(٧٨) من السورة **الثانية والعشرن** في القرآن (القصص)، وكتاب « مصطلحات القرآن في ضوء جديد » (١٩٢٨)، وكتاب « القرآن وبوشكين (الشاعر الروسي الشهير) ».

شرح الله قلبه للاسلام يعتقد ان محمداً هو أفضل الانبياء وان العرب افضل الناس وان اللغة العربية افضل اللغات.

اما فيما يتعلق بالعروبة فيرى فيها «لويس» حركة سياسية وفكرةً تقول بأن العرب امة لها حقوقها القومية. ثم ان هذا الشكل من العروبة لم يظهر إلا في اواخر القرن التاسع عشر مع مجموعة كبيرة من المثقفين المسيحيين في سورية ولبنان ومصر. فأبناء مصر وقفوا في البدء بمعزل عن الافكار العروبية حيث كانوا يعيَّرون بالفرعونية، ولكن مع قيام النظام العسكري القى المصريون بثقلهم مع القومية العربية لدرجة ان اسم مصر غاب عن الخريطة، وهذا امر لم تستطع اية قوة محتلة ان تفعله في السابق.

وبالنسبة للقومية اليهودية يشير «لويس» الى انها بدأت في وسط وشرق اوروبا حيث كانت تعيش الاقلية اليهودية المحافظة. وفي هذه المسألة يؤكد المؤلف انه كانت لهذه الاقلية جميع متطلبات الدولة القومية عدا شيئين: اللغة القومية الواحدة والأرض القومية الواحدة (ص ١٣٨). ونتيجة لذلك كانت حركتا البعث العبري والصهيونية تهدفان الى تأمين هذين الشيئين المفقودين! ولا يكتفي «لويس» بذلك بل يبلغ به حد القول: ان اليهود شعب قادر على استنباط الاشياء الجديدة، ولقد شهد لهم بذلك أصدقاؤهم وأعداؤهم على السواء فهم الذين اخترعوا الرأسمالية والشيوعية، ولقد قال البعض إنهم هم الذين جاءوا بالمسيحية والاسلام! (ص ١٣٩). وهكذا لا يعجز الذين ابتدعوا كل هذا عن ابتداع تاريخٍ وقوميةٍ وكل شيء!!.

يأخذ لويس بناصر الإسلام في مواجهة المسيحية، وبناصر الغرب في وجه الإسلام والمسيحية، وبناصر اليهودية (وهو يهودي) في وجه المسيحية والاسلام والغرب. وهكذا يسود «التَنَافي» نظرته. ولو وعى ذلك لزعم أيضاً أنَّ «التنافي» اختراعٌ يهودي!!.

وتحت عنوان «ثورة الاسلام» يستعرض الفصل الخامس الحركات الفكرية والسياسية التي تصدَّت للتغلغل الغربي في العالم الاسلامي دون الاشارة الى الدور الذي لعبه الاستعمار الاوروبي في تقسيم الناس، وخصوصاً عندما قسَّم الفرنسيون الجزائر الى اوروبيين (كل الاجانب) واهل الجزائر (المسلمون) ومن ابرز هذه الحركات الاسلامية التي قاومت النفوذ الغربي:

- حركة «احياء ديني اصولي» في الهند بعد مجيء البرتغاليين والهولنديين. فهذه الحركة جاءت بحياة جديدة وعزم جديد للعقيدة الاسلامية والمجتمع الاسلامي، وقد صاحبها في الوقت نفسه حركة النقشبندية والأخوة الصوفية وأصلها من أواسط آسيا، ومن ثم انتقالها الى الشرق الاوسط على يد الشيخ الهندي تاج الدين السنبلي (١٦٠٣ - ١٦٠٤) وانتشارها والدور الذي لعبته في تطوير الحركة النقشبندية عام ١٦٧٠ في الدولة العثمانية. كذلك شاه ولي الله الذي اعتز بالعربية، وأنَّ الجزيرة هي مصدر الاسلام الاصلي الذي لم تشوهه زيادات الهنود والفرس.

- الحركة الوهابية ومؤسسها محمد بن عبد الوهاب الذي ساعد الامراء المحليين بحملة جهاد واسعة اسلامية تجديدية لتنقية الاسلام مما علق به من بدع. ثم الاحتلال العثماني للجزيرة وتحطيم القوة الوهابية كونها قادت هجوماً ضد النظام الديني والسياسي القائم في الهند، والافكار التركية والفارسية التي غيرت الشكل الظاهري للاسلام. لكن لويس يعتبر انه بالرغم من انهيار الدولة الوهابية فإنها جاءت ببعث ديني ساعد على حقن الاقطار في الشرق بمصل جديد للكفاح وعزم اقوى على جهاد ومقارعة الاوروبيين والهرطقات الدينية التي لحقت بالإسلام في الهند. كذلك يستعرض المؤلف أسماء ثلاثة زعماء قاوموا زحف المشركين وقادوا مقاومة شعبية ضد الانكليز والفرنسيين: احمد بريلوي في الهند، شامل (داغستان)، عبد القادر (الجزائر).

- مرحلة التطبع والتعاون بعد القضاء على الحركات التي سبقتها مع السير احمد خان في الهند، وعبد القيوم النصيري في روسيا بعد احتلال الروس سمرقند والقضاء على التمرد الذي قام به المسلمون في الهند.

- «حركة الشبيبة العثمانية» التي اجتمعت تحت فكرة وحدة اسلامية تضم جميع المسلمين في جبهة واحدة لمواجهة الخطر المشترك الآتي من الامبراطورية المسيحية (١٨٦٠ - ١٨٨٠). ويذكر المؤلف تأثر هذه الحركة بالوحدة الألمانية والايطالية.

- دعوة جمال الدين الافغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧) الأكثر جذرية وكفاحاً للوحدة الاسلامية، وتجهيز المسلمين للجهاد ضد المستعمرين وعدم التعاون معهم. فالاسلام بنظر الافغاني ليس عقيدةً وحضارةً فحسب بل هو قوة عالمية. ويتهجم «لويس» على الافغاني معتبراً اياه داعياً الى الولاء والنضال ضد الانكليز لا للتقوى والايمان. في حين انه يشيد بالسير احمد خان وأمثاله الذين حاولوا التجديد في الاسلام عن طريق انتشار العلوم الغربية ومهادنته للاستعمار.. كما يعتبر ان الامام محمد عبده كان جهاده سلمي الطابع كونه انصب على الامور الدينية والخلقية والثقافية بعيداً عن السياسة. ويضم الكتاب سلسلة طويلة من حركات المقاومة الاسلامية التي استمرت بتفاوت رؤياها وتوجهاتها منها: الحركة السنوسية ضد الاوروبيين، حركة الثورة المهدية في السودان ضد الاوروبيين، حركة الثورة في موريتانيا وثورة الملا في الصومال. ومعظم هذه الحركات كانت في افريقيا حيث كانت أهم مناطق الاستعمار الغربي.. حركة التمرد الديني (١٩٠٩) في اسطمبول ضد الثورة التي اعلنها القوميون الاتراك وإعدام اقطاب هذه الحركة (فاهديتي)، علي كمال ومؤامرته الفاشلة (١٩١٠) للإطاحة بالشبيبة التركية الملحدة وإعادة حكم الشريعة. واهم الحركات المقاومة للغربيين كانت في الاناضول (جمعية الدفاع عن شرقي الاناضول/١٩٢٠)، فهذه الحركة تحدت الحلفاء والعثمانيين وقادها فيما بعد مصطفى كمال لكنها فشلت برفض السلطان لها. ونتيجة لفشل هذه الحركة فقد تحوّل الكماليون من الدعوة الدينية الى الدعوة القومية والعلمنة.

وفي ختام هذا الفصل ينتهي المؤلف الى القول: إن الليبرالية والفاشية والشيوعية والقومية ذات الاصول الاوروبية لم تستطع أن تتأقلم في منطقة الشرق الاوسط.. والحركات الاسلامية قد هزمت حتى الآن، لكنها لم تقل كلمتها الأخيرة (ص ١٧٩).

وفي الفصل الاخير «مكانة الشرق الاوسط في الشؤون العالمية» يقوم «برنارد لويس» بعرض تاريخي لمعظم دول الشرق الاوسط واستخدامها للدبلوماسية السياسية الخارجية. وفي هذا الشأن يعتبر أنّ الاسلام لم يستطع ان يجاري الامبراطوريات المسيحية في القرون الوسطى وذلك باقامة نظام دولي. فالاسلام اكتفى بالحدود التي وصل اليها، ومن ثم تراجع، كما انه قبل بوجود دويلات مستقلة، وما دخوله في علاقات واتفاقات سياسية مع الغرب الا لمجرد المحافظة على وجوده ابان مرحلة التقهقر مع العثمانيين والاتراك. ومن هذه الزاوية يدعو «لويس» الى اقامة علاقات من جانب الغرب مع الدول العربية وذلك خوفاً من استغلال الروس لحالة العداء التاريخي بين شعوب المنطقة والغرب. كذلك يتوجه «لويس» بدعوةٍ خاصة الى الولايات المتحدة للقيام بهذه الخطوة التي تعود بالمنفعة على الغرب والعرب معاً، خاصة بعد قيام دولة اسرائيل. والسبب في ذلك يعود الى ان العرب المسلمين يشعرون بالارتياح لزعيمة الغرب حالياً كونها لم تقم بدور استعماري مشابه للدور الذي قامت به بلدان اوروبا الغربية في المنطقة. وفي هذا الصدد يذكّر المؤلف الغرب بأن موقف العرب من روسيا